الشيخ المُربِّي الفقيه
محمد بن علي التركي

أحد علماء المسجد النبوي الشريف ؛ كانت حلقته بجوار خوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

واسمه محمد بن علي بن منصور بن عبد الله ابن تركي ، من قبيلة بني خالد المنحدرة من نزار بن معد بن عدنان .

وُلِدَ في « عُنَيزة » من مدن القصيم عام (١٢٩٩) هـ ، وقال البسام : عام (١٣٠١) هـ .

في أول نشأته اشتغل مع أخيه إبراهيم بالتجارة ، فكانت فرصة له لِلُقْيَا العلماءِ في المدن والبلاد التي زارها ..

ففي مكة درس على المشايخ : أحمد بن عيسى ، وأبي بكر خوقير ، وصالح أبي فضل ، وعبد الرحمن الدهان ، وعبد الله زواوي ، وعلي المالكي ، وعبد الله أبي الخيور ، والشيخ المُحدِّث شعيب الدكالي .

وفي عنيزة قرأ على محمد العبد الكريم بن شبل ، وعبد الله بن عايض ، وعلى الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ، وكان إلى جانب حضوره دروسه العامة ، يحضر عنده درسًا خاصًا به في « شرح المنتهى » .

وقد رحل إلى الهند وقرأ على علمائها في « دلهي » و « بمباي » و « حيدر أباد » ، وزار العراق ، والشام ؛ ودخل دار « الشَّطِّيَّة » بدمشق واتصل بعلمائها ،

وذلك في سنة (١٣٤٠) هـ ، وزار فلسطين ، ثم رحل إلى مصر ولقي علماءها ، وفي فلسطين اتصل بالحاج « أمين الحسيني » ، ودرَّسَ بالمسجد الأقصى ، وجلس الحاج أمين الحسيني في درسه يستمع إليه ، وقال : إنه لم يجلس على هذا الكرسي بعد الشيخ محمد عبده أحسنُ من هذا الشيخ .

وفي عام (١٣٥٧) هـ تجوَّل في نجد والأحساء والقطيف وباقي إمارات الخليج ، ثم عاد فأقام في المدينة المنورة ..

يقول البسام : « وهذه الرحلات أكسبته خبرةً بالناس ، ومعرفةً بالبلدان وأحوال أهلها ، كما اجتمع بعلمائها وكبارها ؛ حتى صار من أعرف الناس بالناس » .

وكان قويَّ الحافظة ، وجَّه أكثر عنايته للفقه فبرع فيه ، وكان يحفظ ديوان « المتنبي » .

وقد وُلِّيَ القضاء بالمدينة المنورة سنة (١٣٤٥) هـ ، وفي السنة التالية عُيِّنَ مساعدًا لرئيس القضاة بمكة الشيخ عبد الله بن بليهد ، وبناءًا على طلبه أعفي من ذلك سنة (١٣٤٧) هـ .

ثم عُيِّنَ مدرسًا بدار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة ، وطلبَهُ سماحةُ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ للتدريس بالمعهد العلمي بالرياض عند إنشائه عام (١٣٧١) هـ ، فاعتذر وبقي بالمدينة المنورة .

ولما استقرَّ به المقام في مدينة خير الأنام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام صارت حلقته بالمسجد النبوي الشريف من أشهر حلقات الدرس والوعظ ، وانتفع بعلمه الخاص والعام ؛ فكان يُدرِّس صحيحَ البخاري ، وفي ليلة الجمعة يُدرِّس « تبصرةَ » ابن الجوزي في الوعظ ، وكان لدرسه أثر كبير في نفوس السامعين .

وعاش زاهدًا متقشفًا ، متقللًا من الدنيا ، مقتصرًا على الكفاف ، وكان قويًا في الحق آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، جريئًا في وعظ الحكام والكبراء ، وله وقائع مع الملك عبد العزيز يتداولها الناس ؛ منها ما رواه لي ابْنُ أخيه الشيخ محمد بن إبراهيم التركي رحمه الله لما سألته :

_ أكان الشيخ يلبس العِقَالَ فإني رأيتُ له صورةً بالعقالِ العراقي العريض .

فقال : لَبِسَه مرةً ودخل على الملك عبد العزيز لما زار المدينةَ ، وكان بجواره الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ فأنكر على الشيخ لُبْسَ العقال وقال : إنه ليس لباس العلماء .

فسأله الملك : لماذا تلبس العقال يا ابن تركي مع أنه ليس لباس العلماء ؟

فأجابه الشيخ :

_ حتى أبيِّنَ لك أن هذا العقال الذي على رأسي حلال ، والذي على رأسك حرام لأنه مُقَصَّبٌ بالذهب .

وكان شديد الإنكار على فرض الضرائب والجمارك ؛ حتى إنه اشترط عندما عينه الملك عبد العزيز قاضيًا بالمدينة المنورة أن يتسلَّمَ راتبَه من البريد لأنه حلال ، وباقي أموال الدولة حرام ، أو فيها شبهة .

من أساليبه في تربية الناس وهدايتهم ما حدثني به الشيخ علي بن مشرف العَمْري ؛ من أن سبب هدايته إلى طلب العلم والالتزام بالآداب الشرعية هو الشيخ ابن تركي :

كان الشيخ « علي » في شبابه جنديًا في شرطة المدينة المنورة ، وكان يقف مناوبًا عند باب السلام في « كُشْكِ » الحراسةِ الموجود عند الباب ، وكان غيرَ ملتزم بالآداب الشرعية وله شَعْرٌ يَتَدَلَّى على كتفيه ، ولا يعرف الصلاة ،

فَمَرَّ به يومًا الشيخ ابن تركي وهو داخلٌ إلى المسجد ؛ فتوجَّهَ إليه ونصحه قائلًا :

ـ يا بني احلق شعرك فإنه لا يجوز للرجال التشبه بالنساء .

يقول الشيخ « علي » : فلم أُلْقِ بالًا لهذا « المُطَوَّع » ، وجاء يومًا آخر فرآني على حالي فتوجَّهَ إليَّ ؛ فما شككْتُ أنه سيوبخني توبيخًا شديدًا ؛ فإذا به بعد السلام عليَّ يناولني خمسة ريالات ويقول لي :

ـ تأتينا مساعدات نصرفها للمحتاجين فخذ هذا المبلغ ينفعك .

يقول الشيخ « علي » : ففرحتُ بذلك المبلغ ؛ فإنه يُعَدُّ في تلك الأيام مبلغًا جيدًا . وما بتُّ تلك الليلة حتى حلقتُ شعري ؛ حتى إذا رآني الشيخ يراني على أحسن حال ..

وبعد أيام مرَّ بِي الشيخُ ففرح لمنظري ، ودعا لي بالتوفيق وأعطاني خمسة ريالات أخرى وقال :

ـ إن أحببْتَ أن تلقاني فدرسي على يسارك إذا دخلت من باب السلام هذا .

وكانت هذه الكلمة هي « السُّنَّارَةُ » المباركة التي صادت السمكةَ ، فإن الشيخ « علي » لما استبطأ الشيخ بعد ذلك واشتاقَ إليه ، وإلى الريالات الخمسة ، دخل من باب السلام فإذا بالشيخ « ابن تركي » جالسًا في صدر حلقته كالقمر ، فجلس الشيخ علي في طرف الحلقة واستمع ؛ فوُلِدَ من جديد ، ومن يومها لم يفارق الحلقة .

ولما ازداد نَهَمُهُ للعلم أرشده ناصح إلى حلقة أخرى خلف الروضة الشريفة ، فإذا بشيخ أسمر اللون حلو الكلام ؛ يَتَصَبَّبُ كلامُهُ ويَتَحَدَّرُ كالسيل ، إنه الشيخ عمر بن محمد فُلَّاتَه ـ رحمه الله ـ ؛ وجلس في الحلقة يستمع ، وبعد الدرس تقدم نحو الشيخ يسلم عليه ، فلما عرف الشيخُ حالَهُ

أهداه كتابًا ؛ أتعلمون ما هو ؟ إنه « روضة المحبين » لابن القيم ؛ فانظر إلى رقة علماء المدينة المنورة ولطفهم .

وحدثني تلميذ آخر من تلاميذ الشيخ « ابن تركي » أنه ناقشه يومًا في مسألةٍ قرَّرَهَا في الدرس ، فسأله عنها فأجابه :

_ هذا ما ذكره الحنابلة في كتبهم .

فقال التلميذ : ولكن ما هو دليلهم أريد الدليلَ .

فقال الشيخ : غدًا في الساعة _ الفلانية _ تأتي إلى بيتي فنبحث في كتبهم .

قال التلميذ : فشاءَ اللهُ أني نسيتُ الموعدَ ، وانتظرني الشيخ ولم أحضر ؛ فلما رآني بعد ذلك ما زاد على أن قال :

_ وإذا وَعَدَ أخلف .

ثم كلَّفَ أحدَ طلابه أن يبلغني بأن الشيخ يقول لك لا تجلس في درسه .

وحرمني من حضور الدرس شهرًا كاملًا ؛ كنت خلاله أجلس خلفه قريبًا من الحلقة بحيث أسمع الدرسَ ولا يراني ، وكان يشعر بذلك ولم يقل شيئًا ، وبعد شهر قال لي ذلك الطالب : الشيخ يقول لك لا مانع من عودتك إلى الدرس وفرحتُ بذلك ؛ وبعد الدرس عندما همَّ الشيخ بالانصراف سلَّمتُ عليه واعتذرتُ عن تقصيري ، فأخذني في جنبه محتضنًا إيايَ ، ولَفَّنِي بـ « مِشْلَحِهِ » وقال لي :

_ الذي يطلب الدليلَ ولا يقنع بكلام الحنابلة يجب أن يحافظ على الموعد .

قال الراوي : وكان درسًا بليغًا لا يُنسَى ..

هكذا هم العلماء الربانيون ؛ فإنهم الذين يُعَلِّمون الناسَ ، ويُرَبُّونهم على العلم .

ومرض في آخر عمره ؛ وأرهقته الشيخوخة ، ولما اشتدت عليه وطأة المرض أشار عليه بعضُ محبيه بالسفر إلى الخارج للعلاج فقال :

ـ ما بعد عَشْرِ التسعين إلى الرحيل ، وأقراني كلهم سبقوني ونحن بالأثر فالله المستعان .

وفي صبيحة يوم الجمعة ، العشرين من جمادي الآخرة من عام (١٣٨٠) هـ وافاه الأجل المحتوم ، وصُلِّيَ عليه بالمسجد النبوي بعد صلاة الجمعة ، ودفن ببقيع الغرقد ؛ رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح الجنان .

[ملخصًا من « روضة الناظرين » لمحمد بن عثمان بن صالح القاضي بعنيزة ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ بمطبعة الحلبي بمصر / ومن « علماء نجد خلال ستة قرون » لعبد الله بن عبد الرحمن البسام ، طبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة سنة ١٣٩٨ هـ]